الدّين والإحياء الرّوحي في الوطن العربي: تباعدٌ أم لقاء مع أوربة الغربية؟

الدكتور عبد الكريم اليافي

مقدمة:

جاء في كتاب «انسانية الاسلام» للسيد مارسيل أ. بوازار ما ترجمته: «لا يمكن تنسيق تعاون حقيقي ولا سيما في ميدان العلاقات الدولية الا بشرط سابق وهو أن يتعرف الفرقاء بعضهم بعضا ويظهروا رغبة حقيقية في التفاهم. لم تشجع أوربة الاستعمارية مثل هذا الانفتاح الفكري ازاء العالم الاسلامي الذي كانت تسيطر عليه. ربما لا تكون الدوافع التي حفزت على تحليل الغير كلها لئيمة. ومع ذلك - وباستثناء بعض الأحوال النادرة منها لويس ماسينيون مثلا - كانت تلك الدوافع تفتقر الى نزعة انسانية حقيقية اذ كانت وحيدة الجانب. لقد غالى الاستشراق في الركون الى تفوقه المادي فحال واعياً أو واع دون إنشاء حوار حقيقي يقضي الى حكم أو تقويم (سليم). وقد جلب الاتجاه الذي ينظر الى عقيدة مخالفة على أنها منحطة خيبة ومقتا ساعدا على زيادة الجفوة بين آراء الفريقين[1]».

في هذا الاتجاه، ورغبة منا في تعريف أنفسنا، نعالج هذا الموضوع وذلك على الشكل الآتي:

١ - لمحة تاريخية في الدين والاحياء الروحي في الوطن العربي.
٢ - الدين والاحياء الروحي في الوطن العربي اليوم.
٣ - دلالته في الحوار الثقافي مع أوربة الغربية: تباعد أم لقاء.
٤ - خاتمة أولى.
٥ - خاتمة ثانية.

هذا وكاتب هذه السطور لا صفة سياسية له. وهو ليس من شيوخ الدين الاسلامي وانما هو باحث يتحرى الحقيقة ويؤمن بقيمة الانسان. ولما كان هو سوريا ومسلما اتجه بحثه على الاغلب الى بيان الوضع في وطنه سورية.

لمحة تاريخية:

بيان تاريخ الحركة يزيد في جلائها وايضاحها كما يزيد تاريخ المرء في ايضاح حاله وجلائها، ولذلك عمدنا الى هذه اللمحة التاريخية.

ثمه عند الباحثين مقولتان تاريخيتان: أولاهما التقدم المستمر على اختلاف صوره وأشكاله، وثانيتهما الدور والعود الى البدء والانتقال من الوحدة والكمال الى التفرق والتخلف ثم الى الانبعاث الجديد.

هاتان المقولتان للتفكير الاجتماعي التاريخي وجدتا تقريبا في كل عصر، وان كانت احدى المقولتين تغلب على الاخرى في بعض العصور حتى لتكاد تحجبها.

نجد في التفكير الاسلامي هاتين المقولتين. فالدين انما جاء لارشاد الناس وهدايتهم الى سبيل التعرف والتعاون والتقدم. ولكن كل شيء رهن التغير والتبدل والصيرورة. وقد يكون التطور تقدماً بوجه عام من الناحية المادية، ولكنه ربما لا يكون تقدماً من الناحية الروحية. وذلك أن المجتمعات التي تكمن روح الدين فيها وتتجلى مظاهره في سلوكها قد تصيبها نكسات أو يقع فيها انحراف كما قد يصيب الجسمَ الحيَّ الناشئ بعض الامراض.

فلا غرو أن نجد بعض المفكرين الدينيين والاخلاقيين تصطدم مشاعرهم وضمائرهم بما قد يلمسونه في مجتمعاتهم من تأخر أو انحراف فيعمدون الى التجديد والاحياء ومحاولة الاصلاح. ولقد ورد في حديث للرسول العربي: «ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها[1]».

تجديد الدين معناه تخليصه مما علق به من أوضار وما تسرب اليه من بِدعَ والرجوع به الى أصوله الاولى النقية.

ومع ذلك فلا بد لنا من تفسير هذا الحديث الذي اعتمده الائمة، لانه مهمّ بالنسبة لنا. ذلك أولا أن لفظة «من» تقع على الواحد والجمع وهي لا تختص بالفقهاء وحدهم بل هي عامة تشملهم كما تشمل غيرهم من المفكرين والحكام العادلين ورجال السياسة الاتقياء المخلصين والعلماء المبرزين.

ومعنى جدد الشيء صيره جديدا. وتجديد الدين بهذا الاعتبار الثاني جَعْلُهُ ملائماً لصروف الحياة المتبدلة المستجدة بعد خلوّ حقبه من الزمن والقيام بالاصلاح المادي والروحي المناسب على ألاّ يخالف ذلك روح الدين ولا نصوصه الجلية. ذلك أن التغيرات الطفيفة الكمية تتجمع فتنقلب الى تغيرات كيفية مفاجئة كما يقول بعض الفلاسفة. يقوم بهذه التغيرات المفاجئة في رأينا مصلحون حقيقيون أكفاء. وبذلك ترجع هذه المقولة الثانية التي أوردناها على الدين الاسلامي الى المقولة الاولى وهي لزوم التقدم الدائم الذي هو عندنا ليس تلقائيا بل

هو من صنع الفكر الانساني المبدع، فكر الانسان الذي هو عند المسلمين خليفة الله في الارض وهو بذلك مسؤول عن صلاحها وتقدمها وعليائها في شتى الميادين والآفاق.

محاولة الاصلاح والاحياء والتجديد هذه قد تأتي من ذاتية المجتمع اذ يشعر المفكر المجدد ببعد الناس عن أصالة روح الدين في عهده بالقياس الى العهود الماضية ويُلغَي انصرافهم عن باب الاعمال الى التمسك بقشورها فينهض بدعوته لمعالجة الامور وتصحيحها وتنقية المفاهيم والافكار من شوائبها والرجوع الى الينابيع الاولى الصافية.

وقد تأتي اليقظة ومحاولة التجديد من احتكاك مجتمع بمجتمع آخر أكثر تقدما في بعض النواحي، ولا سيا من الناحية العلمية والمادية، لان التقدم في هذا الشأن أوضح وأجلى منه في ميدان الاخلاق وروح الدين والفلسفة. وهذا الاحتكاك والاصطدام أكثر وقوعا في غمار التاريخ بسبب الجوار أو التجارة أو الرحلات أو الحروب.

في فجر النهضة الاوربية جرى هذا الاحتكاك بين الغرب والشرق في الاندلس وجزيرة صقلية والمغرب العربي ثم في مصر وبلاد الشام أثناء الحروب الصليبية. فأفاد الغرب من علوم العرب والمسلمين ومن الجوانب المادية والروحية لحضارتهم.

وفي القرن التاسع عشر الميلادي بل قبله، بعد أن أتم الغرب ثورته الصناعية واطلع على أصناف جديدة من الطاقة كالبخار والنفط والكهرباء وأمثالها، وأنجزت البرجوازية الغربية سيطرتها في بلادها اتجهت هذه البرجوازية الى بلاد الشرق وافريقية بعد أن تهيأ لها استغلال العالم الجديد اذ ذاك. ووقع هذا الاحتكاك بين الغرب والشرق على طريق التجارة وحملة نابوليون على مصر وعلى طريق الاستعمار.

في أوائل الاحياء الديني الروحي الاسلامي نجد مثلا بارزا في محاولة التجديد بالنظر الى واقع الشعب دون أثر يذكر للاتصال بالمجتمعات الاخرى عند مفكر أصيل هو محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩١)، ان فكرة التوحيد أبرز عناصر الاسلام. فرأى هذا المفكر أن التوحيد الاسلامي قد داخله نصيب من الفساد اذ أشرك المسلمون بالله فاعتمدوا الاولياء وحجوا الى أضرحتهم واعتقدوا أنها تنفع وتضر. واعتبر هذا المجدد أن ضعف المسلمين وسقوط هممهم نحو المعالي سببه فساد العقيدة وخنوع النفوس حين تتكل على الاولياء الموتى وعلى الشيوخ الجامدين فلا تستطيع أن تنافح عن العدالة وعن الحق ازاء الحكام الظالمين والاغنياء الفاسدين المفسدين والاقطاعيين المستغلين. فيجب تحرير تلك النفوس من القيود التي تغلها والرجوع بها الى صفاء العقيدة وخلوصها كما تتجلى عند السلف الصالح..

ولقد استطاع هذا الداعية السلفي أن يؤثر في حاكم الدرعية اذ ذاك بشبه الجزيرة العربية وهو الامير محمد بن سعود، فقبل هذا دعوته وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع والانحراف ونشر الدعوة بالحجة وبالقوة. وهذا ما ساعد تلك الدعوة التي عرفت بالوهابية على الانتشار حين تزوّدت بقوة عسكرية فظهرت بشكل وحدة دينية سياسية في شبه جزيرة العرب.

الى جانب الرجوع الى ينابيع الدين الاسلامي الاولى نوّه محمد بن عبد الوهاب بطريقة الاجتهاد. ذلك أن التطور الواسع الذي طرأ على المجتمع الاسلامي واستجداد أمور كثيرة في حياة الناس وفي شؤونهم لم يكن لهم بها سابق عهد جعلا الفقهاء وعلماء الدين، حين لا يكون بين أيديهم نصوص في القرآن ولا في السنة النبوية تعالجها، يقيسونها على أشباهها للحكم عليها، وهذا هو القياس، أو يفكرون وسعهم ان لم يجدوا لها أشباها في استنباط أحكام شرعية ملائمة ومعللة تقصد الى صلاح المجتمع ورعاية الناس، وهذا هو الاجتهاد. ولما مرّت القرون ونشأت الفتن خشي العلماء تدليس المدلّسين وأصحاب الدعاوى فأغلقوا باب الاجتهاد، أي الاستنباط بإعمال الفكر الحرّ كيلا يتسرب الخطأ الى احكام الشريعة. وهذا الإغلاق، ان كان له بعض المحاسن وهو الرغبة في صون الشريعة وحماية أحكام النصوص من التحريف، فله مساوىء كبيرة وهي كمّ الفكر وإلجام العقل وحبسه في قوالب جامدة من شأنها أن تحول دون التفتّح والتوسع، يقوي العقل والفكر بالحرية ومعالجة الاشياء وممارسة الأحداث.

لذلك نادى محمد بن عبد الوهاب جرياً مع سلفه القديم ابن تيمية الذي تأثر به وترسّم خطاه بضرورة الاجتهاد، على ألا يخالف الاجتهاد نصوص القرآن ولا السنة الصحيحة ولا آثار السلف الصالح.

كانت البلاد العربية والاسلامية تؤلف من الناحية الحضارية والثقافية وحدة عميقة الجذور. واذا جرت فيها تيارات متباينة لم تعدم هذه التيارات آثاراً لها في مختلف بقاعها. ولذلك لم تقتصر الدعوة الوهابية على شبه الجزيرة العربية بل تجاوزتها الى كثير من الاقطار الاسلامية والعربية. كانت فريضة الحج التي تجمع المسلمين في الحجاز كل سنة فرصة صالحة لانتشار هذه الدعوة. فقد حجّ مفكر ديني هندي هو السيد أحمد (١٧٨٢ - ١٨٣١) سنة ١٨٢٢ فقَبِلَ الاصلاح الوهابيّ وعاد الى بلاده في البنجاب فنوّه به فيها وأنشأ شبه دولة وهابية تتحامى البدع والخرافات، وكانت تلك الدويلة من جملة من قاوم الانكليز حين بسطوا سلطانهم على الهند. وانما استطردنا الى ذكر هذا المفكر دلالة على الوحدة الحضارية والثقافية للبلاد الاسلامية.

وتأثرت بالوهابية الحركة السنوسية التي أنشأها محمد بن علي السنوسي (حوالي ١٧٨٧ - ١٨٦٠) وكان لها أثر كبير في افريقية من حيث الرجوع الى الاسلام الصحيح وتخليصه مما لحق به من بدع وانحراف.

وظهر في اليمن الامام محمد بن علي الشوكاني (١٧٥٩ - ١٨٣٤) فسلك السبيل نفسه، وهو مكافحة البدع في كتبه ورسائله والدعوة الى الاجتهاد.

ويمكن أن نعدّ في هذا الاتجاه الحركة المهدية في السودان، فان هذه الحركة السياسية ذات أصل ديني دعت الى بعث الشريعة الاسلامية كما كانت في فجر الاسلام والى التزام القرآن والسنة. والحركتان المهدية والسنوسية كلتاهما تأثرتا بالتصوف وبتنظيمه خلافا للاتجاه الوهابي. وقد بقيت الحركة المهدية مقصورة على السودان.

اما كبار المصلحين الدينيين المجددين الذين شعروا بخطر الاستعمار فأهابوا بالمسلمين ونبّهوهم على شناعته وآفاته فيأتي في طليعتهم السيد

جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧) وهو أفغاني الاصل كما يشير الى ذلك لقبه، وشريف النسب كما يشير الى ذلك لفظ السيد. ولا يمكن الكلام في تاريخ الإحياء الديني الحديث بالوطن العربي، ولا سيما بمصر، دون التنويه بمكانته وأثره العميق. طوّف في ايران والهند والحجاز والآستانة ومصر وغيرها. وكانت اقامته في مصر ثماني سنين من خير السنين بركة عليها وعلى العالم الشرقي. كان جذوة محتدمة تريد أن تصل الى نفوس الشعب وعقول المثقفين والحكام وتثيرهم كاشفة لهم آثار الاستعمار السيئة، ولا سيما البريطاني، على الشعوب الاسلامية، موضحة ضرر هذه الآثار في التوجيه الفكري والروحي لحياة المسلمين، وكذلك في الميدان الاجتماعي والاقتصادي. دعا الى تمسّك المسلمين بإسلامهم والى الثورة على الاستعمار الغربي مصدر الفساد والضعف في حياة المسلمين كما دعا الى فتح باب الاجتهاد والرجوع الى روح الاسلام الصحيح، والحثّ على العلم وأساليب التنظيم الحديثة وتنوير العقول والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ودراسة العلوم الحديثة والفلسفة. ولم يكن الشيوخ اذ ذاك ينظرون الى الفلسفة بعين الرضا.

وقد أكمل تلميذه الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) رسالة أستاذه. رأى أن الدين الاسلامي قد تحوّل الى نظام من الاتساع والتعقيد بحيث نشأت فيه نحل ومذاهب كثيرة حتى ليصعب على المرء، إن لم يؤتَ حظاً من الذكاء وقسطاً من العلم، أن يتعرف الاسلام الصحيح. ولهذا بدا له أن السبيل للنهوض بالاسلام كامن في العودة الى أركان الدين الاولى حتى يصلح الدين لتوحيد المسلمين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم، وفي الدعوة الى تحكيم المنطق والعقل في الاعمال والشؤون، والى ضرورة الاقبال على الدراسات العلمية الحديثة التي يتداولها الغربيون اذ ليس في روح الحضارة الحديثة ولا في علومها ما يناقض الإسلام الصحيح اذا فُهم فهماً صحيحاً: بل الاسلام نفسه يحثّ على الأخذ بطرق هذه العلوم وبمكاسبها. أو ليس العلم يبحث في الكون وفي اسراره وقوانينه؟ وكذلك الدين يحفز على هذا البحث. والعالم في الدين الاسلامي أفضل من العابد بدرجات كبيرة.

هذا وقد تأثر الشيخ محمد عبده بالدعوة الوهابية، وكذلك بالاتجاه المعتزلي والاتجاه السلفي. وهو من أوسع الشيوخ ثقافة وأكثرهم اطلاعا وأشدهم اتصالا بالحياة العامة. وربما كان معجباً من طرف خفيّ بتقدم الأوربيين البرجوازي. فمال في بعض الفتاوى النادرة الى التوفيق بين الإسلام والعلاقات البرجوازية والرأسمالية (قضية الفائدة الضئيلة). وأياً كان الامر، فقد كان له الأثر البالغ في الدعوة للتجديد والتمسك بروح الدين، لا بمظاهره، وفي الاهتمام بتثقيف العقول وتربية الناشئة..

ومن المع تلاميذه ومريديه الشيخ محمد رشيد رضا البغدادي الأصل. وقد ولد في قرية قريبة من طرابلس الشام وتعلم في طرابلس ثم رحل الى مصر فاتصل بالشيخ محمد عبده وتتلمذ له وأصدر مجلة «المنار» لبثّ آرائه في الاصلاح الديني والاجتماعي ونشر عدة رسائل وكتب في هذا الميدان.

لقد كان دعاة التجديد الديني والاصلاح الاجتماعي وأعلام السياسة ورعاة النهضة ينبثون في جميع البلدان العربية والإسلامية، ولاسيما أن رعاية النهضة والسياسة السليمة والاصلاح الاجتماعي والتجديد الديني كان جلها يصدر عن روح الدين على أثر احتكاك البلاد الشرقية بالغرب، والشعور بالتخلف إزاءه في مضمار الصناعة وميدان العلوم المادية وما يتبع من قوة عسكرية ليس غير.

ويصعب في هذه العجالة أن نتعقبهم جميعا، وننوه ببدعاتهم وبتعاونهم ونضالهم. ان هذه اليقظة الروحية حصلت في جميع البلاد العربية. ويكفي أن نشير الى السيد أحمد خان والسيد أمير علي والى الشاعر الكبير محمد اقبال في كتابه «تجديد الفكر الديني» في الهند، والى خير الدين التونسي في تونس والآستانة، وإلى عبد الرحمن الكواكبي والشيخ طاهر الجزائري والشيخ جمال الدين القاسمي والامير شكيب ارسلان في سورية والى أمثالهم الكثيرين. فكل منهم جدير أن يُنوّه به وبآرائه ونضاله لولا تحديد الموضوع. ولكنا ما نزال نجد لهم ولامثالهم تلامذة ومريدين وأنصاراً في وقتنا الحاضر. هذا كله الى وفرة نشر الكتب من جميع الأنواع ولا سيما التراثية منها والدينية. انما نريد أن نصل الى الكلام على الحالة الراهنة. ولا بد في ذلك من الاشارة الى أن الدين الاسلامي دين روحي وتعبّدي واجتماعي وسياسي في أصوله وان ظهر بعض المفكرين مثل القاضي الشرعي المصري علي عبد الرازق الذي حاول أن يفصل بين السياسة والإسلام في كتابه المشهور «أصول الحكم».

الدين والاحياء الروحي في الوطن العربي اليوم

عوّدتنا الفلسفة الحديثة استعمال لفظ ازدواج الدلالة تلقاء بعض الظواهر. يمكن أن نستعمل هذا اللفظ في مجال الدين، ذلك أن الدين يظهر في شكلين: شكل ساكن يدل على التقوقع والجمود، وشكل متحرك يسعى الى التجديد والتطور. لقد ذكرنا آنفا جوانب من حركات التطور والتجديد في الدين، ولكن هذه الحركات كانت تصطدم دائما بأشكال الدين الجامدة التي تعكف على القديم ولا تكاد تبرحه وتمقت كل جديد وتعدّه بدعة في الدين وانحرافا عن سَنَنِه القويم.

وهي بذلك تمثل العقلية المغلقة التي أخذت من الدين رسومه وظاهره وأهملت لبابه وحقيقته. وكم جرى نزاع ونقاش بين الاتجاهين! وكم لقي أرباب التجديد من عنت ومقاومة من قبل المتمسكين بالقديم العاكفين عليه!

ذكرنا آنفا أسماء الاعلام في اليقظة الدينية الاجتماعية. لقد تخرّج في حلقات هؤلاء الرجال العلمية والوعظية وفي مدارسهم الفكرية جيل جديد واعٍ ولمنه محتدم العاطفة، اتجه نحو إنشاء منظمات إسلامية تتعاون فيها الجهود وتنضمّ لتسير نحو وجهة واحدة. أشهرها جمعية الشبان المسلمين في مصر، اقتصرت على المجال الثقافي والرياضي والتعاوني، ثم حركة الإخوان المسلمين في مصر أيضا وهي التي أنشأها حسن البنّا (١٩٠٦ - ١٩٤٩). وقد أفاد من دعوات زعماء الاصلاح الديني الذين تقدّموه وجمع بين دعوة جمال الدين الافغاني الذي رأى مجيء الاصلاح على طريق الحكم ودعوة الشيخ محمد عبده الذي رآه يتم على طريق التربية، واستطاع بما أوتي من صفات الزعامة أن ينظم هذه الحركة تنظيماً دينياً قوياً. وقد بيّن الشيخ البنّا موقف الاخوان بأنهم ليسوا حزبا سياسيا ولا طريقة من الطرق الصوفية ولا جمعية خيرية ولا ناديا رياضيا ولا مؤسسة مالية اقتصادية ولكنهم هيئة اسلامية

تجمع ذلك كله في أوضح أشكاله وأنفع آثاره وتضم اليه كل ناحية نافعة من نواحي النشاط الاجتماعي المختلفة، وقد ربطت هذه الحركة جماهير شعبية ومثقفة واسعة الى حد أقلق رجال الحكم اذ ذاك فانتهى الأمر الى اغتيال مؤسسها.

واذا كنا قد ذكرنا الشيخ البنا وتأسيسه حركة الاخوان المسلمين فلكي نبيّن خطر الحركات السياسية التي تستند الى الدين أو خطر الحركات الدينية التي تستند الى السياسة. فهي سرعان ما تجني استعداد الجماهير الديني في الشرق وتغدو مناوئة للحكم الراهن ومهددة له ولا بد من اصطراعها. وقد حصل هذا الاصطراع مرة أخرى في زمن الزعيم جمال عبد الناصر في مصر فألحق بالحركة واتباعها دماراً كبيراً. ولكن التنظيم الديني ان أخفق حين يناوئ الحكم فان الروح والتربية الدينيتين والقاع الثقافي الديني، كل ذلك باقٍ لدى الجماهير العربية والاسلامية يمكّن زعماء السياسة الافادة دائما عند الضرورة وفي سبيل النضال الوطني كما حصل في ثورة الجزائر التي عرفت كيف ترتكز على مشاعر جماهيرها أو كما حصل في ثورة ايران التي تبدو أشد التزاما في النواحي الدينية السياسية. وربما كان الفرق في شدة الالتزام أن جماهير الشيعة أشد ارتباطا بعلمائهم من بقية المسلمين.

لا شك أن حركة الاخوان في مصر استدعت نشوء حركات جزئية في أقطار عربية أخرى، ويهمنا هنا أن نتابع هذه الحركات الجزئية في سورية بشكل موضوعي ما أمكن.

لقد تبلور جزء من المشاعر الدينية في سورية أول الامر في جمعية التمدن الاسلامي التي تأسست سنة ١٩٣٠ وعكفت على اصدار مجلتها الشهرية ومنشوراتها المتعددة والقيام ببعض المحاضرات العامة في موضوعات شتى ولكنها كلها تدور حول الاسلام والحياة الاجتماعية.

وقد انحصر نشاط هذه الجمعية في مجال التثقيف الديني فقط. وفي سنة ١٩٣٥ تأسست جمعية الشبان المسلمين بدمشق على غرار جمعية الشبان المسلمين في مصر الى جانب جمعيات اسلامية مماثلة في بقية المدن السورية منها دار الارقم في حلب، والانصار في دير الزور، والاخوان المسلمين في حماة، وشباب محمد في حمص، وغيرها باسماء مختلفة ومتعددة. الا أنها كانت تجمعها وحدة الهدف وكانت تتصل فيما بينها اتصالات جزئية. ونتيجة هذه الاتصالات المختلفة ولاتحادها في الهدف والموضوع انضوت جميع هذه الحركات المحلية تحت اسم واحد هو «رابطة شباب محمد» التي تحولت فيما بعد الى اسم «الاخوان المسلمين».

والذي يجب أن يلاحظ هنا الحركة الاسلامية في سورية نشأت متميزة ومستقلة عن حركة الاخوان في مصر، وهي التي أنشأها حسن البنا كما سلفت الاشارة الى ذلك، فهي لم تكن ملحقة بها ولا تابعة لها وان كانت قد تأثرت بها لانها قريبة منها في طبيعة تصورها للإسلام وعملها من أجله، اذ كانت تفهم الاسلام وقضيته في العصر الحاضر على أنها بعث للكيان والتراث الاسلاميين، وليست مجرد أعمال خيرية أو نشاط رياضي أو مجرد دعاية كما كانت تظهر في جمعية الشبان المسلمين في مصر. والحقيقة هي أن حركة الاخوان المسلمين في سورية لم تبدأ عملها وتنظيماتها الشاملة الا ابان الحرب العالمية الثانية أي في عام ١٩٤٣ حين بدأ يظهر نشاط الاحزاب السياسية في الميدان القومي والوطني والاقتصادي. فاتخذت الحركة شكل الجمعية أول الامر ولكنها لم تلبث ان خاضت في السياسة.

هذا ومن الطبيعي أن تكون جمعية الاخوان المسلمين في سورية متأثرة تأثراً عميقاً بجمعية الاخوان المسلمين في مصر. فان مراقبها العام كما كان يسمى وهو الشيخ مصطفى السباعي (١٩١٥ - ١٩٦٧) تعلم في سورية ثم ذهب الى مصر ودرس في الأزهر وأحرز شهادة دكتور في التشريع الاسلامي وتاريخه سنة ١٩٤٩ من الازهر نفسه، واثناء اقامته بمصر اشتغل بالسياسة وكان شديد التحفّز بليغ الخطابة دائب العمل. انطلق على رأس كتيبة من الاخوان المسلمين في سورية للدفاع عن بيت المقدس سنة ١٩٤٨. ثم رجع الى دمشق ونظم جمعية الاخوان وأشرف على وجود نشاطها، وانضم الى هيئة التدريس في كلية الحقوق في الجامعة السورية، اذ ذاك ثم نجح في الانتخابات العامة نائبا عن دمشق في مجلس النواب. ولما أنشئت كلية الشريعة في جامعة دمشق، وذلك بسعيه المتحمس الدائب لانشائها، كان أول عميد لها.

من أقرب معاونيه محمد المبارك (١٩١٤ - ١٩٨١) عيّن في هيئة التدريس بكلية الشريعة عند انشائها، ونجح أيضا نائبا عن مدينة دمشق في مجلس النواب وتولى الوزارة خلال ذلك عدة مرات. ولكن فريقاً من الإخوان المؤسسين للحركة اعتزل الجمعية لانهم لم يكونوا راضين عن الزجّ بأنفسهم في غمار السياسة الغامض فاقتصرت أعمالهم على التثقيف والتوجيه الدينيين.

وقد تمثلت أهداف الجمعية في ناحية فكرية وثقافية. وأهم ما استطاع الاخوان انشاؤه في هذه الناحية سعيهم لتأسيس كلية الشريعة سنة ١٩٥٤ فرعا من فروع جامعة دمشق. وهي ما تزال حافلة بالطلاب الذين يهتمون بالتراث الاسلامي ويتخرج فيها كل عام المدرسون الدينيون والوعاظ وأئمة المساجد والموظفون في وزارة الاوقاف وأمثالهم. وأصدروا جرائد يومية ومجلات توقفت كان أهمها «حضارة الاسلام» صدرت سنة ١٩٥٦ وتوقفت منذ عهد قريب.

كذلك أسهم الاخوان اسهاما واسعا في ميدان السياسة. فكان لهم ممثلون في مجلس النواب بين سنة ١٩٤٧ - ١٩٥٨ وكان من بينهم وزراء كما سلف، ولكن اهتمامهم السياسي هذا عاد عليهم بأسوأ العواقب، لانه لبث غامضا الى جانب التيارات القومية والشيوعية التي كانوا يناوئونها. فقد عانت البلاد مرير التجارب من قبل الاستعمار الغربي ومكايده، وشهدت العدوان الثلاثي على مصر، وقدّرت موقف الاتحاد السوفياتي من ذلك العدوان فطمست الظروف السياسية أعمال الاخوان. ولما جرت انتخابات عام ١٩٥٤ في سورية أخفقوا فيها. ثم حصلت الوحدة بين الشقيقتين مصر وسورية، وحلّت الاحزاب في ظل الوحدة، ثم تعرض عبد الناصر للاغتيال واتهم الاخوان به في مصر فنُكبوا. ولم يكن بدّ من أن تسهم تلك النكبة من بعض الوجوه في سورية. وقد بقي حزب الاخوان محظورا في سورية ومصر.

ان جمعية الاخوان المسلمين هي غير المسلمين المتدينين الذين يملؤون المدن والقرى في سورية والذين أصبحوا يبتعدون ما استطاعوا عن التيارات السياسية المتقلبة. وعلى الرغم من حوادث الاخوان

المسلمين ومغبتها المأساوية نجد الناشئة ما يزال قسم كبير منها يهتمون بتراثهم الديني الذي يكوّن عنصرا ثابتا من عناصر شخصياتهم. وهكذا نجد الناس من مختلف الاعمار ومتفاوت الاجيال والطبقات ممن لا ينتسبون الى أحزاب سياسية معيّنة يمارسون عباداتهم التي هي أركان الاسلام لان الاسلام يبدو لهم اطارا صالحا لوجوه نشاطهم المتعددة وحافزا لذلك النشاط من علم وفن وحب للتقدم وحرص على المعرفة والعلم وميل نحو التسامح والتعاون وسعي دائب نحو الخير ومحبة الآخرين.

وبصرف النظر عن حركة الاخوان التي بسبب لونها السياسي لم تجد استجابة عميقة وثابتة لدى الناس شهدت العقود الاخيرة من السنين نمواً ملحوظاً في الكتابة والحديث عن الاسلام، تناولت مختلف جوانبه كشرح أصول العقيدة فيه بأساليب جديدة ومحاولة الكشف عن عناصر النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي فيه. ويرى الشيعة أن نمو الفكر الاسلامي في العصر الحديث قد قد بلغ ذروته في قيام الثورة الاسلامية الايرانية التي حققت انتصارا كاملا على النظام الشاهنشاهي الايراني والتي تحاول أن تبني مجتمعا اسلاميا كاملا جديدا. الا أن هذه الثورة يُخشى عليها من التعسف والانحراف وقد انجرفت في حرب مأساوية مع العراق من الأفضل لها وللمسلمين أن تجعل لها حدا. وأيا كان الامر فان آثارا لتلك الحركات الدينية الاصلاحية السياسية تبدو في الحين بعد الحين في أشكال جماعات أو أحزاب مثل حزب التحرير في شرقي الاردن، ومثل حركة التكفير والهجرة في مصر وغيرها. نكتفي بالاشارة اليها دون التعرض لمضمون دعواتها وذلك لمجرد بيان القاع الثقافي الديني المتين في نفوس الناس بالوطن العربي.

واذا أردنا أن نصنف المتديّنين المسلمين في الوطن العربي وسَعَنا جمعهم في زمر متفاوتة:

١ - أصحاب الفكر الديني الواعي الذي يتوخى الاصلاح المستند الى القيم الروحية والمادية معا. وقد نجد المفكر المؤمن يجنح الى الدعوة الاسلامية بدلا من الدعوة القومية لانها أوسع وأعون على لمّ الشمل ومقاومة القوى الخارجية، فدائرة المسلمين أوسع من دائرة العرب. من هؤلاء نذكر الامير شكيب ارسلان ومحب الدين الخطيب وأمثالها سابقا. ولا شك أن آثارهم باقية حيّة عند طائفة من الشبيبة.

٢ - أصحاب الفكر الديني، الحاصل من ردّة الفعل أو الارتكاس تجاه التحدي الحضاري الغربي الرأسمالي والشرقي الشيوعي. وهو ما نجده عند طائفة كبيرة من الشبيبة المثقفة في هذا العصر، لان هؤلاء الناشئة ينظرون الى أحوال بلادهم المتأخرة أو النامية ويتأمّلونها ويدركون ما تكابد شعوب هذه البلاد من محن واستغلال واجتياح فيجدون أهم السبل التي تلمّ الشعث وترأب الصدع وتتقدم بجماعاتهم الرجوع الى ينابيع الدين الاسلامي الصافية والتمسك بها. فانه لا يصلح حال هذه الامة الا على ما صلح عليه سلفها كما يقولون، ويرون صحيحا ما كتبه الشيخ محمد عبده من أن الاسلام لم يدع أصلا من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا أمّاً من أمهات الصالحات الا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قرّرها. فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده حرية الفكر. واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه من انهاض العزائم الى العمل وسوقها في سبيل السعي. ومن يَتْلُ القرآن حقّ تلاوته يجد فيه كنزا لا ينفذ وذخيرة لا تفنى[1] وكذلك تابع الاسلام المرء في حياته الفردية وعلاقاته الاجتماعية والمدنية فنظّمها تنظيماً جيداً يعود بالخير عليه وعلى المجتمع معا. لذلك نجد هؤلاء الناشئة عوضاً من أن ينصرفوا عن الدين يقبلون عليه ويتمسكون بمبادئه التي هي مبادىء الحرية والعقل والتقدم.

ردة الفعل هذه تحصل في نفوس الناشئة الواعية دون أن يكونوا على معرفة واسعة بعلوم الدين كمعرفة أولئك المصلحين الذين سبق الكلام عليهم.

٣ - المتديّنون الممارسون الذين تلقوا التعاليم الدينية من أسرهم وبيئاتهم، مَثَلُهم في ذلك مَثَلُ الصنفين السابقين. ولكن الدين عندهم وممارسة العبادة أصبحا بمثابة العادة يجرون عليها ويجدون فيها مستنداً متيناً في حياتهم الشخصية والاجتماعية. ان الدين الاسلامي أنكر في دعوته على الابناء مجرد تقليد الآباء في عقائدهم دون اعمال العقل. ولكن هؤلاء يجدون ان الدين حافز لهم على العمل وعلى مكارم الاخلاق وتسديد الخطا، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما جاء في القرآن.

ولفظ «المعروف» شديد الدلالة من الناحية الاجتماعية، لأنه يشير الى أعمال الخير الجميلة المتعارفة والى التضامن بين الناس، ولفظ «المنكر» قوي الدلالة أيضا لأنه يندد بأفعال الشرّ التي يجب على الناس أن ينكروها على مرتكبيها.

وهؤلاء جميعا في الغالب يبقون بعيدين من دعايات الايديولوجيات المتطرفة الا حين يجدون في بعضها عوناً ولو الى أمد، وخلاصاً من الدمارين المادي والحيوي البارزين في أنياب الاستعمار وبرائنه قديمه وحديثه كما يجدون في بعضها ملاذا للمساواة الانسانية تلقاء التعصب وعدم التفهم اللذين بلوهما ويبلونها من ذلك الاستعمار بنوعيه. ذلك هو السر في أن المسلمين شديدو التمسك بدينهم السمح على الرغم من تأخرهم المادي تلقاء الغرب الاستعماري والشرق الماركسي. بل انهم يجدون أن تأخرهم نشأ من ابتعادهم عن جوهر دينهم ومن عدم الاستجابة لدفعه لهم على العلم الحديث والعمل الدائب والتقدم المثمر. كذلك يلجؤون الى الدين تستند بسبب مما عانوه من ضغوط خارجية وداخلية مذهلة. ومن المناسب إجراء بحوث حديثة تستند الى المسح الاجتماعي وأصوله العلمية لبيان مدى تعلق الجماهير الاسلامية بدينهم وممارستهم لعباداته والاستجابة لأوامره والابتعاد عن نواهيه. ولكننا نستطيع أن ننوه بدليل بسيط على هذا التعلق. وهو امتلاء مساجد المسلمين بالمصلين في الاقطار الإسلامية، مدنها وقراها، أوقات الصلاة ولا سيما صلاة الجمعة.

هذا ومن المناسب هنا أن ننوّه بحركات نسوية في البلاد العربية بعيدة كل البعد عن السياسة، تتعهد أعمال الخير والسعي في خدمة الفرد والجماعة، وتزاول تثقيف الإناث من مختلف الأجيال وتفقيههن وتعليمهن وتحفيظهن القرآن وتعمّق معانيه. وهذه حركات مهمة لانها تعمد الى بناء الأفواج الناشئة بناء تربوياً قوياً. وليس الأزواج بساخطين على هذا الاتجاه، لأنه على الاقل يتحامى التبرّج والزينات

الفارغة ويساعد على تقليل النفقات التي لا جدوى فيها.

يقابل هؤلاء جميعا أحزاب وجماعات تدعو الى القومية العربية بصرف النظر عن الدين أو تدعو الى الماركسية. كل منهم يقوّي صفّه بالاستناد الى الاوضاع الاقتصادية والسياسية الداخلية والخارجية. ودعوتهم تشتدّ تلقاء تعصب الغرب واستغلاله.

بقي سؤال واحد يختلج في القلب ويتلجلج به اللسان وهو مصير الدعوة الوهابية التي نوهنا بها في مستهل اللمحة التاريخية.

لقد حاولت تلك الدعوة، لدى بزوغها، إبطال الخرافات والبدع الشائعة اذ ذاك، ولكن لكل عصر خرافات. وتتبدل مضامين الخرافات عند تبدل الموارد الاقتصادية وازدهارها، ونخشى على تلك الدعوة الصافية أن تلابسها خرافات الصداقات والاتفاقيات الدولية المبطّنة أو المقنّعة وغيرها في الوقت الحاضر. وربما كانت أشد ضرراً من الترهات الشعبية وأباطيل الدهماء

دلالة الدين والاحياء الروحي في الحوار الثقافي مع أوربة الغربية تباعد أم لقاء

الاسلام والمسيحية والموسوية (اليهودية اليوم) ثلاثة أديان من أرومة واحدة، هي الارومة السامية. وهي جميعا مرتبطة في تسلسلها بالجد القديم ابراهيم الذي تأمل الكون وقلّب وجهه في السماء وبحث وفكّر، فلم ترضه عبادة الاصنام الجامدة المصنوعة ولا عبادة النجوم المتغيرة الآفلة فتجاوزها جميعا الى الإيمان بوجود إلّه حي متعالٍ واحد.

وبهذا الاعتبار يرى المسلمون ان هذه الأديان في أصولها الروحية بمثابة أخوة، وان كانت لكل أخ خصائصه المرتبطة بالزمان والمكان واللغة والناس الذين آمنوا به. هذه الخصائص الى التعاون والتتامّ والالتئام أكثر دفعا منها الى الافتراق والتشادّ والانفصام والخصام. ويرون أن الاسلام أحدث هذه الأديان عهداً وأكثرها حفاظاً على أصول التعليم الالهي (القرآن، الانجيل، التوراة) وأشدها احتراما ودعا للأخوة والقرابة المتسلسلة. هذا وقد نشأ في أحضان كل دين بحسب السياق التاريخي والاجتماعي فرق مختلفة بينها فروق كبيرة أو طفيفة حسب مواقف المفكرين ورجال العلم فيها. هذه الأديان بفرقها المختلفة تكاد تكون موحّدة.

واذا كان في الأديان نصيب من التعليم الإلّهي، في رأي بعض المؤمنين فانّ فيها نصيبا آخر هو من صنع الانسان واجتهاده، وهذا النصيب الآخر هو أقل ما يكون في الإسلام على رأي المسلمين.

لا شك أن المشرق العربي هو مهد هذه الديانات الثلاث التوحيدية. جاءت الموسوية لإنقاذ بني اسرائيل ولهدايتهم، فهي بهذا الاعتبار ديانة ضيّقة. ولما جاءت المسيحية ثم الإسلام كانت رسالتها توحيدية وتأليفية للبنية الاجتماعية المتفرقة، كما كانت تقصد الى حلّ المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والى توجيه شعوب هذه المنطقة وجهة حضارية أخص صفاتها تبليغ الرسالة الى الشعوب الأخرى وتحقيق الأخوة العالمية.

جاء السيد المسيح فكانت دعوته انسانية. فهمه الحواريون وأيّده المستضعفون المساكين وطلاب العدالة في مجتمع قائم على العنف. وقاومه رؤساء الكهنة والفريسيون، خوفاً على مصالحهم الخاصة. بل سلّمه بعضهم للصلب بدلاً من أن يؤمنوا به ويُعلوا شأنه.

ولما أتى الاسلام أخيراً كان من تعاليمه توكيدُ ما في الموسوية والمسيحية من قيم رفيعة. وكان كلما خاطب الوثنيين من قريش يستشهد بأهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ويعلن رجوعه من خلال ديانتهم المتطورتين الى ملّة ابراهيم الصحيحة. وقد أسلم بعض هؤلاء ممن اتسعت قلوبهم لمزايا الدين الجديد الداعم لقيم دينهم الاصلي. هذا وقد أشاد الإسلام اشادة كبيرة بالانبياء الذين جاؤوا قبله ولا سيما موسى الذي عدّه كليم الله، وعيسى الذي اعتبره كلمة الله.

وهكذا جرى المسلمون بواقع دينهم ومضمونه ودوافعه على احترام الديانتين اليهودية والمسيحية احتراما عميقا، كما أضمروا لاتباعها المودة والاخلاص والحماية (لا مجرد التسامح) وأعلن رسول الاسلام أن «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة[1]» ويدخل في المعاهد أصحاب الديانات الاخرى.

وغدا الدين الاسلامي أبعد النحل والمذاهب من التمييز العنصري والتعصب الديني. جاء في القرآن: «لا إكراه في الدين، قد تبيّن الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم» (٢ - ٢٥٦)، كذلك يدعو الى تعارف أبناء البشرية، داعماً تفاهمهم وسعيهم نحو القيم الرفيعة: «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير» (٤٩ - ١٣).

وموقف الاسلام من بقية الديانات كموقفه من اليهودية والمسيحية، وان بقي أقرب لها منه لها «وإن من أمة الا خلا فيها نذير» (٣٥ - ٢٤)، هذا ان حافظت تلك الديانات على جوهرها وروحها وأصالتها وابتعدت عن الزيف والتحريف. وقد ورد من أقوال الرسول العربي: «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله» (هذه رواية الطبراني عن ابن مسعود، وللحديث روايات أخرى).

ولو شئنا أن ننوّه بانفتاح الدين الاسلامي للناس جميعا على وجه العموم وبدعمه للديانتين المسيحية واليهودية خاصة لاتسع الكلام، وهو متعارف ومتداول عند المسلمين.

وهكذا يستبين مما سلف تسامح الدين الاسلامي وأخوّته لجميع الديانات على خلاف ما ينسب اليه المغرضون من التعصب. وهم أولى بهذه الصفة السيئة منه.

ثم ان الدين الاسلامي بأصوله المتنوعة، وهي بالترتيب القرآن والسنة والقياس والاجماع مرنٌ الى آخر حدود المرونة، وليس بجامد كما يتهمه المغرضون. ومرونته تزداد بمبدأين آخرين مهمين، وهما مبدأ الاجتهاد وهو في اصطلاح الاصوليين استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي، وقد نادت به الحركات الاصلاحية التي سبق الكلام عليها في اللمحة التاريخية. ثم مبدأ المصالح المرسلة وهي الاوصاف التي تعرف علّيتها ولم يشهد لها الشرع بالاعتبار ولا بالابطال، ولا سيما اذا كانت المصلحة ضرورية قطعية كلية. وهذه أمور داخلة في مباحث أصول الدين الواسعة يرجع الباحث إليها في كتب الاصول.

وثمة مزية كبرى في الإسلام تجعل أتباعه مستمسكين به وهو وجود نص الوحي كما تنزل يقرؤونه وينهلون من معينه البليغ فيروون ظمأهم الروحي في الحين بعد الحين أو يصغون لتلاوته. وهو ليس مترجماً ولا منقولاً بألفاظ غير التي تنزّل بها ولا محرّفاً بل هو محفوظ بجملته وتفاصيله. وهذه خاصة عظيمة للغة العربية يجدر بمن يهتم بالنبوات والميتافيزياء ويريد أن يطلع على نص الوحي المحفوظ أن يدرس تلك اللغة دراسة وافية كي يتفهم ذلك النص تلوح من خلال حروفه وألفاظه ومعانيه واشاراته الألوهة المتعالية.

هذا وعندنا أن الفكر الديني المعاصر اذا رغب أن يتطوّر ويتقدم وتتسع آفاقه ويؤتي ثماره لزمه ألا يبقى عبارة عن ردة فعل ازاء الغرب، وإلا حاكي اتجاه الغرب في تعصّبه، بل عليه اتخاذ المبادرة بإصلاح الانسان إصلاحاً جذرياً وتقوية عناصر الايجابية، فلا يتنكر لما يجيء به الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي بل يتفاعل به، ويمكن أن يتجاوزه بالسلام والتعاون لخير الانسانية عامة.

لقد تحدّثنا عرضا فيما سبق عن الأصالة والتجديد في الدين، وقد يرد الى الفكر سؤال وهو: من المؤهلون لتجديد التعبير الصحيح عن الفكر الديني الاصيل والقيام بالإصلاح السليم المنشود؟

لا شك أن المؤهلين هم علماء الدين أكثر من غيرهم. ولكن القسم الأكبر من علماء الدين الاسلامي في الوقت الحاضر محتاجون أن يتجاوزوا مجرد اطّلاعهم على أصول الدين الاسلامي الى التزود الواسع بالعلوم الانسانية الحديثة بل بالعلوم الموضوعية أيضا لتتسنى لهم صحة النظر في حاضر الاوضاع والتنظيمات العامة الحديثة في مشكلات الحضارة المعترضة. وقد يتم ذلك بالتعاون مع غيرهم في مختلف الأقطار الاسلامية وسواها، ولا شك أنهم أنفسهم أولو ثقافات متفاوتة، وقد تلقّوا تأثيرات متباينة. ثم ان ارتباط الشعب المتديّن بعلمائه الدينيين يختلف شدةً ولياناً فهو عند الشيعة أقوى منه عند أهل السنة كما سبقت الاشارة الى ذلك. وليس ثمة ضرورة في أن تكون الاحكام المستجدة واحدة قاطعة في الفروع، لان هنالك مرونة عجيبة في الدين الاسلامي كما سلفت الاشارة اليها. وقد ورد في بعض الاقوال الدينية أن «اختلاف الائمة رحمة».

ومن المناسب أن ننبّه على وهم خادع عند بعض المستشرقين المغرضين، وهو أن الاسلام خليط من بعض المبادئ والتي جاءت في المسيحية واليهودية، عمد الى جمعها رسول الاسلام. هذا القول أبعد ما يكون عن حقيقة الايمان الذي يجب أن يتحلّى به المؤمن اليهودي أو المسيحي لانه بذلك يتنكر للوحي ولجوهر الدين، كل دين. وكذلك هذا القول بعيد جداً من صحة المعلومات التاريخية وفيه طمس للحقائق. فاذا دقّقنا في تاريخ الديانات الثلاث وجدنا ان الدين الاسلامي يعلن أنه جاء مصدّقا لما في التوراة والانجيل من مبادئ سليمة.

وهناك أخبار هامشية تسربت الى حواشي الكتب الدينية الاسلامية على طريق اليهود الذين دخلوا في الاسلام، نبّه عليها شيوخ الاسلام ودعوها «الإسرائيليات» وألزموا نبذها والشك فيها أو عدم تصديقها.

كذلك نجد أن الدينين اليهودي والمسيحي على العكس هما اللذان أفادا من مبادئ الإسلام وحضارته. ويطول بنا البحث في هذا الشأن وإن كان ضروريا، ولكنا نشير عرضا الى أن احبار اليهود وعلماءهم وممثلي حضارتهم الذهبية في ظلال الحضارة العربية الإسلامية بالاندلس استفادوا كل الاستفادة في لغتهم وفي وضع قواعدها وفي أشعارهم وبحورها، وفي اعتباراتهم الدينية والفلسفية من المسلمين وحسبنا الاشارة هنا الى موسى بن ميمون. وكل بحث في هذا السبيل قد ينير حقائق مطموسة.

كذلك نجد أن المجمع الايماني الرابع الكاثوليكي الذي انعقد في لتران Latran سنة ١٢١٥ يعرف الذات العليّة بأنها لم تلد ولم تولد.

«et illa res non generas, ne que genita»

(Ref Enchiridion Symbolarum de Denzinger M 432).

وهذه ترجمة حرفية للآية (١١٢ - ٣) من القرآن «لم يلد ولم يولد» وجاء في كتاب «في علم الجمال» لمؤلفه بول أولانيي ما يأتي: «حول ولادة مريم سبق القرآن الى اعلان عقيدة الحبل بلا دنس. يتضمن انجيل لوقا وحده تحية الملك لها «فدخل اليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها، الربّ معك مباركة أنت في النساء (الاصحاح الاول ٢٨)» وورد في القرآن: «واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٣ - ٤٢)».

فاذا قارنّا العبارتين وجدنا القرآن يضيف على القديس لوقا طهرك أي طهرك من كل دنس ومنه الخطيئة الاولى. وهكذا حقق القرآن الجمال الخلقي المطلق تمام التحقيق للأم العذراء قبل أن يعلن البابا بيوس التاسع في ٨ كانون الاول ١٨٥٤ للكاثوليكية عقيدة الحبل بلا دنس، أي قبل أكثر من اثني عشر قرنا. وربما كانت تلك العقيدة مما حمله الصليبيون من الشرق[١]».

هذا وان آدم في الاسلام بعد أن أزلّه الشيطان فعصى ربه تلقّى من ربه كلمات فتاب عليه (البقرة ٢ - ٣٧). فزالت الخطيئة الاولى في عرف الاسلام بتوبة الله على آدام. وانما أردنا هنا أن القرآن لما طهّر مريم دون تقييد التطهير دخل فيه - لو اعتبرت الخطيئة الاولى - الطهارة منها.

ومن المعلوم ان هذه العقيدة صادفت مقاومة عنيفة من قبل علماء اللاهوت المسيحيين كالقديس توماس الاكويني في كتابه «الجملة».

ونحن انما نستشهد بأقوال المؤلفين الغربيين المنصفين. ولو صنعت بحوث جديدة في مدى استفادة المسيحيين من المؤلفات الدينية والصوفية الاسلامية، ولا سيما ابان النهضة الاوربية، وبعد ترجمة الكتب العربية بأنواعها المختلفة الى اللاتينية لتبيّنت حقائق متعدّدة مطموسة.

ان المؤلفين الغربيين في الوقت الحاضر يقرّون بقلّة اطّلاع الغرب عامة على حقائق الدين الاسلامي وجهلهم به. جاء في كتاب «الصوفية» لمؤلفه وليم ستودّارت قول المؤلف «لبعض الأسباب التاريخية وغير التاريخية كان الغربيون للديانتين الهندوكية والبوذية أكثر ألفة منهم للإسلام. لم يسيء الغربيون فهم الاسلام فقط، بل انهم به أكثر جهلا منهم بأي دين غير مسيحي. ويجوز أن يُدعى الإسلام بأنه

الدين المجهول[٢] ».

بل ان الاوهام والافكار الخاطئة السابقة جعلت مؤلفاً كبيراً في تاريخ الاديان وحقائقها وهو روني غينون يكتب منذ حين ناصحاً للأوربيين دراسة الأديان الشرقية مبتدئين بدراسة الديانات الهندية قبل دين الاسلام لما استقرّ في أذهان الغربيين من تلك الاخطاء والتصورات الضالّة عن هذا الدين. نستسيغ هنا لأنفسنا، وفي صدد الحوار الثقافي بين الشرق والغرب، أن نترجم هذا النص المتأمل المقنع الذي كتبه هذا المؤلف الواعي في كتاب أصبح قديما بعض الشيء وهو « الشرق والغرب » لعله يفيد في محاولة جادة لتقريب اللقاء وتوطيد التعاون وذلك في بحث عنوانه « التفاهم لا الانصهار » جاء فيه:

« الآن اذ يجب الشروع في دراسة المذاهب الشرقية لإيقاظ الفكر الغربي (نتكلم على دراسة حقيقية وعميقة مع جميع ما تقتضيه من تكامل شخصي لدى من يقوم بها لا على دراسة سطحية وخارجية على مثال ما يفعله المستشرقون).

ينبغي أن نشير الى الدواعي التي من أجلها يستحسن على العموم ايثار بعض تلك المذاهب في البدء على بعضها الآخر. قد نسأل: لِمَ نتّخذ الهند مستنداً أصلياً بدلا من الصين، وكذلك أيضا لِمَ لا نرى من الأفضل أن نرتكز على ما هو أقرب الى الغرب أي على الجانب الروحي للاسلام؟ اننا نقتصر مع ذلك على تأمل أقسام الشرق الثلاثة هذه، ما بقي في الشرق من العقائد، إما أقل أهمية وإما أن الغربيين يجهلونه جهلا كبيرا حتى يغدو شرحه عسيرا قبل أن يسيغوا أمورا أقل بعدا عما اعتادوه من التفكير. أما الصين فثمة أسباب مشابهة لما سبق تحول دون البدء بتأمل مذاهبها مباشرة. ذلك ان الأشكال التي تتجلى فيها هذه المذاهب بعيدة حقاً كل البعد عن العقلية الاوربية كما أن طرق التعليم المتبعة فيها تسارع في تثبيط أكثر الأوربيين موهبة. قلّ من هؤلاء من يقوى على مثابرة عمل يجري وفق تلك الطرق. ولو أن نخبة تهيّأت لتقوم بذلك لوجب تجنّب العقبات التي تنشأ عن مختلف الاحتمالات والتي هي بمزاج العرق أكثر ارتباطاً منها بشوائب الملكات العقلية.

أشكال تعبير المذاهب الهندية، مع أنها أيضا مباينة كل المباينة لما اعتادته العقلية الغربية، هي أقرب الى الفهم وأكثر استجابه وملاءمة. ونستطيع القول: إن الهند، في هذا الصدد، تشغل مكاناً وسطاً في مجموعة الشرق. فهي ليست شديدة البعد ولا شديدة القرب من الغرب. ولو أننا اعتمدنا على من هو أقرب للغرب لظهرت محاذير وعقبات من نوع آخر، ولكنها ليست أقل خطرا. وربما لا يوجد مقابل العقبات والمحاذير مزايا تذكر، ذلك أن الحضارة الاسلامية يجهلها الغربيون مثل جهلهم تقريبا للحضارات التي هي أكثر إيغالا في الشرق. وهم على الأخص لا يدركون جزءها الميتافيزيائي بتاتا، وهو الذي يهمنا هنا. ان الحضارة الاسلامية بوجهيها الباطن والظاهر، والروحي والشرعي، وبالشكل الديني الشرعي الظاهر، هي أقرب ما يمكن أن نتصوره عن حضارة غربية نقلية (نقلية هنا بمعنى حاصلة عن وحي وتعليم الهي) لكن وجود هذا الشكل الديني نفسه، وهو الذي يقترب به الاسلام من الغرب، قد يثير من الغضب مالا تحمد عقباه، وان كان لا داعي له حقا. ذلك ان العاجزين عن تمييز مختلف الميادين قد يذهب بهم خطأ الظن الى توهّم المنافسة على الصعيد الديني. ولا شك أنه يوجد في نفوس شعوب الغرب (ونجمل فيهم أكثر المفكرين المزيّفين) من البغضاء تجاه كل ما يتعلق بالإسلام أكثر مما هو تجاه بقية مذاهب الشرق.

والخوف عنصر من عناصر البغضاء هي أشد ما تكون شراسة في بلاد الأنكلوسكسون. هذه النفسية ناشئة عن قلّة الإدراك والفهم. ولكنها ما زالت قائمة. فيلزم أبسط التبصّر في الانتباه لها الى حدّ ما. إن النخبة الفكرية، التي يراد إنشاؤها، عليها أن تتغلب على هذا العداء الذي ستصادفه وتصطدم به من كل جانب، فلا تزيد فيه بمقارفة أوهام لا تلبث الحماقة وسوء الطوية معا أن تبثها وتذيعها. قد يحصل ذلك في جميع الاحوال. ولكن متى تُوقّعَت حَسُنَ تلافيها ما أمكن دون أن يتبع ذلك أذى. ولهذا السبب أبعدنا الاعتماد السياسي على روحانية الاسلام، وهذا لا يمنع بالطبع أن تكون هذه الروحانية من ماهية ميتافيزيائية صرف معادلة لما يوجد في المذاهب الأخرى. ونعيد هنا القول إن القصد ابتغاء الطريقة المثلى التي تراعي مقتضى الحال دون الدخول الى قضية المبادئ[١].

هذه بعض شهادات الغربيين التي تعلن جهلهم بالإسلام وبغضاءهم المبدئية لأهليه ظلماً وعدواناً. على حين نجد في المقابل كل شيء في الدين الاسلامي يدعو الى لقاء الآخرين وتعارفهم والتعاون معهم في تحقيق القيم الرفيعة فلا بد إذن إزالة الأوهام المساورة لأفكار الغربيين وإبعاد الكراهية والإنكار والتشويش وطمس الحقائق مما هو مخالف لروح جميع الأديان.

ربما تبدلت الحال لدى الطبقة العالية من علماء الدين المسيحي في الوقت الحاضر تجاه الاسلام. فقد صدرت وثيقة عن أمانة الفاتيكان على أعقاب مجمع الفاتيكان الثاني بعنوان « توجيهات للحوار بين المسيحيين والمسلمين » تدل طبعتها الثالثة عام ١٩٧٠ على ذلك التبدل. فقد دعت الوثيقة الى نبذ الصور البالية المتوارثة أو التي شوّهها الافتراء والاوهام لدى المسيحيين عن الإسلام، واعترفت بالبغي الذي اقترفه الغرب في مجال التربية الدينية من قبل على المسلمين، وندّدت بأفكار المسيحيين الخاطئة فيما ينسبونه الى الإسلام من جبرية وغلواء وتعصّب وغيره، ووكدت وحدة الإيمان بالله بين الديانتين.

ولكن تلك الوثيقة لم تكن الا هبّة نسيم بليل بين سمائم الرياح الهوج المحرقة التي تغلغلت بين غالبية الجماهير الغربية على طريق الدعاوى الكاذبة والبهتان المفضوح والتحريفات المزيفة والدسائس المغرضة التي نعثر عليها في ثنايا الكتب الغربية.

هذا شأن الإخوة المسيحيين، فاذ انتقلنا الى اليهود وجدناهم أشد عداء وأكثر تحاملاً وبغياً على العرب والمسلمين، ولا سيما الصهيونيون، وهم بما يسيطرون عليه من وسائل الاعلام المختلفة في أوربة وأميركة لا يتورعون عن أخطر أنواع الكذب والافتراء والتشويه والتشويش في حق العرب والمسلمين وبكل أسلوب يتسنّى لهم.

هذا وقد انتبه بعض الباحثين الغربيين المنصفين لمكانة الاسلام في الوقت الحاضر تجاه اصطراع الايديولوجيات المتنافرة والمشكلات الحضارية الناشئة. جاء في كتاب « انسانية الاسلام » للسيد مارسيل

أ. بوازار ما يأتي:

«بالجملة يبدو الاسلام في العالم المعاصر مرة جديدة جوابا للأسئلة التي يطرحها مصير الانسانية والمجتمع. ان تطور الدول السياسي الداخلي يولّد حلولا ويبرز تبدلات خاصة. ولكن الاضطرابات التي هزّت البلاد الإسلامية في عقود السنين الاخيرة توكدت فيها أصالتها الاسلامية. وما زالت تلك الحركات تستمدّ وحيها من التراث المشترك.

ان أصالة النظام الإسلامي قائمة في تصوره للإنسان الاجتماعي، وهو تصور يعارض الشيوعية التي تذيب الفرد في الجماعة ويعارض الليبرالية التي تجعل كلاً من الفرد والمجتمع ندّاً للآخر. ذلك أن التضامن الاجتماعي يحقق احترام حقوق الانسان ضمن الجماعة وفي خارجها حين يعتبر الانسان كائناً تابعاً للقانون الدولي. فالإسلام، على عكس المادية الوضعية التي تجرّد الانسان من انسانيته، يوطّد الفكر ويمنع أن تصبح الدولة الإله الآلي الذي دان به الغرب والذي تجهد لفرضه الدول التي تدعي أنها اشتراكية، ذلك أن المسؤولية الفردية، بمعناها الملزم، عامل كبير في التحرر يحول دون فقدان الشخص فرديته. ثم ان توكيد المصير الى الآخرة من شأنه أن يخضع الدولة للقانون ولا يخضع المرء للجهاز السياسي.

وفي هذا النسق الفكري ينوه الإسلام، على المستوى الدولي، بارتباط الشعوب بعضها ببعض أكثر من كفايتها لذواتها. والخلاصة أن عقيدة الاسلام الشرعية تنوّه بالاستقامة والسلم العالمي والواقعية والاعتدال وهي كلها فضائل توائم طبيعة الانسان الروحية»[1]

خاتمة أولى

اذا صح لنا أن نحكم اتباع الاديان الثلاثة، لا على الاديان أنفسها، كان حكمنا قاسياً. ذلك أنه يمكن اعتبار الدين من بعض الوجهات، كالعلم والفن والادب، صيغة فوقية بالنسبة لحياة الناس المادية التي هي صيغة تحتية. وعندئذ لو نظرنا الى الأدباء والفنانين والعلماء في مختلف الاقطار ومتباين الشعوب لوجدناهم يقدّر بعضهم بعضاً، ويسعى بعضهم أن يستفيد بطريق ما من بعض. الشاعر مثلاً يقرأ شعراء البلاد الاخرى ويسعى أن يدرك في أشعارهم جمالها الفني ويتحرى ما يثوي وراءها من إبداع شاعري ليصل الى ينبوع الأصالة وسر الإمتاع ومهبط الإلهام.

هذا هو موقف الشاعر ذي الموهبة الحقيقية التي يريد أن ينميها بالاطلاع على أعمال أمثاله الآخرين والإعجاب بها ويشق طريقاً جديداً مبتكراً الى مصدر القيم الرفيعة. وقل ذلك في الفنانين عامة وفي رجال العلم.

نحن نتمنى لرجال الدين، أيان كانوا والى أي دين انتسبوا، أن يبرهنوا على صحة دينهم وورعهم بالاطلاع الصادق الحصيف الواعي، لا الخارجي ولا المتكبر، على حقائق الأديان الاخرى بغرض الفهم والإفادة، لا بغرض التحريف والتشويه والتزييف.

ان صحة ورعهم مرهونة بالشهادة الأمنية لغيرهم من أتباع الديانات الاخرى، لا بمحاولة الحطّ من غيرهم، خدمة متوهمة لمصالح قومية عارضة واستعمارية غاشمة واقتصادية ظالمة. عندئذ تلتقي الديانات جميعاً ولا سيما التي هي من أرومة واحدة ويزداد اتجاهها الصحيح نحو غايتها السامية وذلك لخير الانسانية جمعاء ولإيجاد حلول لمشكلاتها الناشبة. في هذا يتم اللقاء الصحيح القائم على الاحترام المتبادل.

خاتمة ثانية

ولكن ذلك مجرد أمنية. ان معظم الذين يشتغلون بالأمور الدينية قد يستغرقون في الوعظ واللهجة الخطابية والالفاظ المؤثرة التي هي من نوع الإنشاء وفي التوكيد على نظرة معينة أو موقف محدد خاص مع أن الدين الحقيقي في رأينا - كل دين - يتسامى فوق ذلك ويبتعد عن المراء والرياء والافتراء والبهتان ويستشرف نحو معالي الأمور وغايات الخير الانساني العام.

ويبدو أن هؤلاء المتدينين لا يستطيعون أن يضعوا حدّا للأثرة القومية والنزعات العنصرية وعمى المصالح الاقتصادية وجموع النعرات النازية التي يذرّ قرنها حيناً بعد حين.

ان أوربا التي تبدو علمانية في كثير من أقطارها تغدو دينية متعصبة في خارج هذه الأقطار.

لما دخل الجنرال غورو دمشق، عشية الانتداب الفرنسي، يروى أنه توجه الى ضريح السلطان صلاح الدين الايوبي فدخل الى مقامه بصورة عنف وتهكم وبيده سيفه ووقف أمام الضريح دون أن يؤدي التحية احتراما للبطولة الراقدة وقدسيتها وقال: «يا صلاح الدين أنت قلت لنا في إبان حروبك الصليبية إنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا اليه.. وها اننا قد عدنا. فانهض لترانا ههنا. ولقد ظفرنا باحتلال سورية[1]».

لقد تحرّرت البلاد الشرقية من قيود الاستعمار القديم، ونهض العالم الثالث من كبوته يبحث عن مكان أمين له في العالم يتقي فيه الاستغلال والاجتياح. ولكن هذه البلاد تجد أنفسها في مواقف حرجة تلقاء الاستعمار الحديث وفي لجة النظام الاقتصادي العالمي الراهن. وتكاد تكون مكبّلة بالأغلال إزاء الانتفاقيات السرية والمعونات المالية الظاهرية التي تعطي الحكام بيد وتأخذ بأكثر من يد.

ان البلاد العربية لتحلم بالتعاون فيما بينها وبالتساند لتؤلف أمة «وسطا[2]» بين الشرق والغرب ولتدعم العلاقات السليمة الكريمة بينهما، ولتنشئ بذاتها سدّا منيعا مفيدا للحضارة الانسانية العالمية يمنع بشموخه ومتانته تيارات الطغيان، ويمد جسراً لاحباً بين القارّات يربط أواصرها الاقتصادية والثقافية وييسّر تبادلها وامتزاجها الإنساني، وذلك لتوكيد السلام والاطمئنان على كوكبنا الارضي المهدد بأشباح الحروب النووية المدمرة.

ولكن كيف نحدث عن لقاء الغرب والشرق ونحن نكتب هذه السطور في غمرة اجتياح القوى الاسرائيلية، بريّة وبحرية وجوية، للبنان وتقتيل من تجده أمامها من شيوخ ونساء وأطفال وتدمير ما تصادفه من بنيان ومساكن ومرافق عامة. وفي عرام تصميمها النازي للقضاء على الشعب الفلسطيني البائس المحروم المشرد وتجريده حتى من حقوقه الشرعية بعد أن طردته من وطنه الأصلي ومن دياره التي عاش فيها القرون الطويلة؟ أم كيف يتم اللقاء وتلك القوى مدعومة بأكبر قوى الاستعمار تبيّت وتخطط لحروب مرحلية تشنّها حيناً

بعد حين، تفتك أثناءها بربوع السلام ومهد الاديان وملتقى الحضارات وتبتلع أراضي الغير ابتلاعا مسعورا بعد أن تريق على جوانبها الدماء البريئة لتبني على جماجم سكانها أسطورة كرّت عليها آلاف السنين كما كانت النازية تتحرى على ألسنة فلاسفتها قارة الاطلنطيد؟ مأساة البلاد العربية هذه ما كانت لتقع لولا أن مهد لها الاستعمار القديم وما كانت لتستمر لولا أنها مدعومة دعما أعمى بالاستعمار الحديث، إنها تنذر باشعال نيران وحرائق دائمة ومتواترة في المنطقة لا تقتصر عليها وحدها بل سوف تتجاوزها، فلا يذهب الشعب العربي وحده ضحيتها.

قال مفكر مسلم قديم[1] ما خلاصته: إنه لا فرق بين الايمان والالحاد، ولكن الفرق بين المؤمن والملحد. ومعناه في رأينا أن الدليل الصحيح الخارجي على الإيمان يتمثل في السلوك الانساني لدى المرء والجماعة والأمة.

عبد الكريم اليافي
دمشق

(١) Boisard–L'humanisme de l'Islam, Paris. Albin Michel, 1979, P. 394. Marcel A.

وقد صدرت ترجمة الكتاب منذ عامين عن دار الآداب ببيروت، ترجمة الدكتور عفيف دمشقية.

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله، وأخرجه الطبراني في الأوسط عنه أيضاً بسند رجال ثقات، وأخرجه الحاكم من حديث ابن وهب وصححه.

(١) رسالة التوحيد، طبعة مصر سنة ١٣٦١ هـ. ص.٢٠٧.

(١) أخرجه أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه.

(1) Paul Olagnier –sur l'Esthétique, Paris, Librairie gnrale de droit de jurisprudence 1945 P 123

(2) William stoddart – Sufism Thorson Publishers limited, 1967, pp. 12

(2) René Guénon –Orient et Occident, Payot, Paris, 1924, pp. 222 –224

(١) Boisard, lhumanisme de lIslam p.p. 391 – 392.

هذا وترّهات العالم الغربي عن الاسلام والمسلمين كثيرة جدًا في القديم وفي الحديث، وحسبنا هنا أن نشير الى كتاب حديث جدًا فيه إثارة وكذب وبهتان مما يخفض من شأن مؤلفه ويجعله هنا هدفا للسخرية وهو كتاب «الميثاق» The Covenant. عام ١٩٨٠ لكاتبه جيمس. متشنر James A. Mitchner Random House, Neu york, 1980.

جاء في الصفحة ٢٧: «المسلمون هؤلاء أعداء المسيح الدائمون الكريهون» وفي الصفحة ٧٨ يشير لمؤلف المؤلف جازماً الى ان محمداً هو إله المسلمين يعبدونه. وكثيراً ما ينسب الى القرآن أقوال غريبة، منها هذه النادرة التي قرأناها في كتاب فرنسي لم نسجل عنوانه ولا اسم مؤلفه لهوانها وهو: «اضرب زوجتك: ان لم تعرف أنت السبب فانها تعرفه».

(١) الايضاحات السياسية واسرار الانتداب.

(٢) «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» قرآن (٢ – ١٤٣).

(١) قتل سنة ٣٠٩ هـ/٩٢٢ م.

دار الآداب تقدم

- زوربا
  نيكوس كازنتزاكي – ترجمة جورج طرابيشي
- العراب
  ماريو بوزو
- الموت السعيد
  البير كامو – ترجمة عايدة مطرجي ادريس

الغريب وقصص اخرى
البير كامو – ترجمة عايدة مطرجي ادريس

- قصة حب
  اريك سيغال
- قصة اوليفر
  اريك سيغال
- الموت حبا
  بيار دوشين
- صورة الفنان في شبابه
  جيمس جويس – ترجمة ماهر البطوطي
- الجحيم
  هنري باربوس – ترجمة جورج طرابيشي
- الشوارع العارية
  فاسكو براتوليني – ترجمة ادوار الخراط
- الصخب والعنف
  وليم فوكنر – ترجمة جبرا ابراهيم جبرا